كلمة الأب البروفسور جورج حبيقة
رئيس جامعة الروح القدس الكسليك
في تخليد ذكرى حليم الرومي
في ١١ ت١ ٢٠١٧

باسم قدس الأب العام نعمة الله الهاشم، السامي الاحترام، الرئيس العام للرهبانية اللبنانية المارونية والرئيس الأعلى للجامعة، يطيب لي أن أرحب بدولة رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري، ممثلا بسعادة النائب الدكتور ميشال موسى، الذي شرفنا بوضع هذا التكريم الأكاديمي لأحد المجلين في الموسيقى الشرقية، تلحينا وأداء، حليم الرومي، تحت رعايته. وبصنيعه هذا يؤكد دولته أن على المسؤولين الكبار في الجمهورية اللبنانية ألا يتوانوا عن إيلاء الشأن الموسيقي الاهتمام البالغ، لما لهذا القطاع من تداعيات عميقة الأثر على صقل مشاعر المواطن ودفعها إلى مراتب عالية من الأنسنة والابتهاج والسلامية. على حد قول الفيلسوف الألماني نيتشي: "الحياة بدون موسيقى هي بكل بساطة خطأٌ ووهَنٌ ونفيٌ".

توافدنا الليلة جميعا إلى حرم جامعة الروح القدس الكسليك، جامعة الموسيقى والتراث والعلوم، لنحيي ذكرى فنان عظيم عزّ نظيره في كل مطاوي حياته الزاخرة بعطايا مذهلة. جميعنا يعرف أنه أبصر النور سنة ١٩١٩ في مدينة صور، "مدينة الملوك" كما كان يلذُّ لحليم الرومي أن يدعوَها، لأن عائلته كانت من ربَّان البحر وأسياده، إبحارا وتجارة وترحالا؛ في صور المدينة الضاربة في عمق الزمن الإنساني، حيث خطف زفس، بحسب الأساطير اليونانية، أوروبا الرائعةَ الفتون، ابنةَ آجنور، ملكِ صور، وذهب بها إلى الأصقاع التي باتت تتكنى باسمها، أي أوروبا.

إن السمة الطاغية في حياة حليم الرومي إنما هي الترحال الدائم، في مطاردة عنيدة لكل صنوف الإبداع والحداثة. يسكنه أبدا قلق المعرفة وهاجس الأجمل. منذ أولى سنوات طفولته، نراه يختبر في لاوعيه مرارة الرحيل وحلاوته، قساوة الانسلاخ ونشوة الاكتشاف. فكان انتقاله مع ذويه من صور إلى حيفا، كالعديد من عائلات لبنان التي انهكتها ويلات الحرب العالمية الأولى. هناك تبرعمت أحاسيسه الجمالية في مداعبة الألوان التي كان والده يتقن تلاقحها كمزخرف وخطاط ورسام. ذكاؤه المتوقد وتعددية مواهبه صاغا منه مثالا للتلميذ المتفوق في مواد التحصيل المدرسي كافة. فكما نقول إن التاريخَ وليدُ الجغرافيا، هكذا وقع حليم الرومي في عشق هاتين المادتين غير المنفصلتين ودخل متألقا ومبدعا في تاريخ موسيقى هذا المشرق المستلقي على جغرافيا من التنوع الفني المغني والمثري في شقيه الروحي والعلماني. في انطلاقته الأولى في حيفا، تربع بدون عناء على عرش المرتّل الأول في جوقة المدرسة التي كانت تقوم بخدمة الاحتفالات الدينية وعلى عرش خليفة أم كلثوم على مسرح بستان الانشراح. إن تصفيقَ الناس الراعد واندفاعاتِهم الهذيانية، تعبيرا عفويا عن إعجابهم الشديد بموهبة خارقة، استوطنت ذاكرتَه وباتت تتحكم في انفعالاته كلما رنَّم وأنشد وكلَّما صعِد إلى خشبة مسرحٍ وغنّى.

إن جوعَه المزمن لمناهل الموسيقى الشرقية لم يدعه يكتفي بما حصل عليه على يد الموسيقي فوزي سليم، فراح حلمُ السفر إلى القاهرة ليلتحق بمعهد الموسيقى الشرقية الذي كان يدعى آنذاك معهد فؤاد الأول للموسيقى العربية، يقضُّ مضجعَه ويُنهك أعصابه. بعد تعثرات متلاحقة، تحقق أخيرا ما كان يصبو إليه. وفي اليوم الرابع من تشرين الثاني من سنة ١٩٣٧، نرى حليم الرومي يهرول إلى ميناء حيفا ويصعد بشغف المغامر وانتظارات البحار إلى متن باخرة صغيرة تحمل اسم زعفران، يتجه غاطسها إلى بور سعيد. فاستقبله في اليوم التالي مصطفى رضا بك، رئيس المعهد الموسيقي، وطلب منه أن يعزف على آلة القانون ويغني ليُكوِّن فكرةً عن موهبته ومهاراته المكتسبة. فأدى بصوت خلاّب وعزف ماهر قصيدة:

"يا بلبلَ الرّوضِ ما أشجاكَ أشجانا فاملأ رُبى الرّوضِ أنغاماً وألحانا"

فانذهل مصطفى بك مما سمِعَ ورأى وقال لمن كان في صحبة حليم الرومي: "ما عسانا أن نضيف إلى ما يعرف! إنه مكتملُ المعرفة والجهوزية". هذا هو الفنّان الأصيل. ينظر إلى ذاته أبدا كأنه قابع في مستوطنات الجهل، هو العارف والمقتدر. ففي سنتين فقط أنهى دبلوما يمتد على ست سنوات. وهكذا انطلق حليم الرومي في مشواره الفني في الإذاعة المصرية والمسارح والاستعراضات والأفلام السينمائية. وتجلى بقوة في خانة المطرب والملحن. فانضم إلى فرقة "سُمّار الليل" التي كان من بين مؤسسيها الشيخ زكريا أحمد ورياض السنباطي والكمنجاتي يعقوب طاطيوس.

لأسباب عائلية، عاد حليم الرومي إلى حيفا سنة ١٩٤١ وبدأ العمل في إذاعة الشرق الأدنى حيث كان يدير برامجَها الفنانُ اللبناني يحيى اللبابيدي. فتبوأ فيها للتو مرتبة الفنان الأول مطربا وملحنا وعازفا على العود. ثم ما لبث أن عُين رئيسا لقسم الموسيقى فيها، فساهم بشكل فعال في دفعها إلى تبوء المرتبة الأولى بين إذاعات المشرق. إلى ذلك، فاز سنة ١٩٤١ بجائزة تلحين نشيد الجيش العربي الأردني.

في السابع عشر من تموز سنة ١٩٤٩، تزوج حليم الرومي في بور سعيد من ماري لطفي التي تعرّف عليها في حيفا. بأعطر الكلمات وأعسلها يصف شخصية زوجته، معتبرا إياها اللحنَ العذب وقطعةً من روحه. وفي أوائل شهر كانون الثاني من سنة ١٩٥٠، عاد حليم الرومي وزوجته إلى لبنان لقضاء شهر العسل. فكان شهرُ العسلِ للإذاعة اللبنانية حيث عُيِّن رئيسَ قسمِ الموسيقى ثم رئيسَ قسمِ مكتبة التسجيلات. على مدى ثلاثين عاما، رفع حليم الرومي القسم الموسيقي في الإذاعة اللبنانية إلى أعلى المراتب، تنظيما وذوقا وإبداعا. واكتشف وأطلق العديد من المطربين والفنانين. بلغ إنتاجه الفني زهاء ألفي لحن، منه فقط للإذاعة اللبنانية حوالي خمسمئة وخمسين لحنا، موزعة على الأغاني والقصائد والموشحات والأوبريتات. نال الجائزة الأولى في مسابقة تلحين الموشحات الأندلسية، التي نظّمها مجمع الموسيقى العربية في تونس سنة ١٩٧٢.

كما ترون، تجلى حليم الرومي في كل شيء وحلَّق عاليا في فضاء الإبداع وعملق بلدَه لبنان. نجح في كل شيء، إلا في أمر واحد فشِل وكان فشلُه خدمة للموسيقى ولرفعة الفنّان أخلاقيا وروحيا وإنسانيا. فشِل

بردع كريمته العزيزة ماجدة عن دخول عالم الفن. فاستلمت الفنانة الكبيرة ماجدة الرومي شعلة أبيها وأبقتها متوقِّدة في ميادين الحداثة الراقية.

وهنا يطيب لي أن أتقدم من الأب الدكتور بديع الحاج، عميد كلية الموسيقى، بالشكر العميق على إصداره في هذه المناسبة الكريمة كتابا نفيسا عن حياة حليم الرومي ومؤلفاته. كما وأُجزله الشكرَ مع فريق العمل في الكلية والجامعة على تنظيم هذا الاحتفال، تخليدا لذكرى فنان أثرى مكتبة الموسيقى في بلد الأرز والبلدان العربية. ويسرني أيضا أن أسوق شكرا خالصا إلى الجوقة الشرقية بقيادة الدكتورة غادة شبير التي أحيت بجدارة تراثا موسيقيا خالدا. وإليكم جميعا، خاصا منكم المجمعَ العربي للموسيقى وأمينَه العام الدكتور كفاح فاخوري ووفودَ الدول العربية العزيزة المشاركة في المؤتمر، أتوجه بأصدق كلام امتناني لحضوركم النوعي المحفِّز والحاضن لنشاطات جامعة الروح القدس الكسليك الفكرية والبحثية والثقافية. وشكرا.